

تحت الأرض .. أسرار وخفايا

في صباح البشريــة الباكــر

كل قصة عظيمة كانت لها بداية قد تبدو لنا بسيطة، وفي صباح البشرية الباكر بدأ الإنسان بخطوات بسيطة بالنسبة لنا الآن ... مشى على قدميه كثيراً باحثاً عمّا يأكله ليبقى حيّاً، كافح كثيراً للبقاء، أمسك بقطع الحجارة الصغيرة ليسنّها ويصنع منها أدوات لتقطيع بعض الثمار ولحم الحيوانات التي بالكاد تمكن من صيدها، اكتشف حاجته للتواصل مع أبناء جنسه وإخوته فاخترع اللغة، كان ذلك إنجازاً عظيماً مكّنه من تبادل المعلومات والمعارف مع الآخرين.

أشعل الإنسان النّار وأوقدها لأول مرة، لتكون تلك أعظم شعلة في التاريخ .. أعظم بكثير من شعلة الأولمبياد، تعلّم كيف يسيطر عليها، يطهوا بها اللحم ويحمي بها نفسه، وظل يتنقل دائماً من مكان إلى آخر بحثاً عن أرض تجود له ببعض ثمارها وزرعها، أو ثدييات يمكنه صيدها بأدواته الحجرية البسيطة، تنقلٌ مكّنه من الإنتشار في القارة الإفريقية الأم، قبل أن يقوده فضول الترحال إلى خارجها عبر مضيق باب المندب على شاطئ اليمن لينتشر لاحقا في العالم كله.

في آخر كل يوم من تلك الحقبة .. كان يبدو التعب بادياً على أسلافنا الأوائل، وكانوا أيضاً يخشون على أنفسهم وأطفالهم من خطر الحيوانات المفترسة، أو التجمعات البشرية الأخرى، ومن تقلبات المناخ التي قد تكون قاسية في بعض أحيانها، لذا وفي خطوة أولى لحماية نفسه وإراحتها لجأ للكهوف ليحتمي بها من خطر كل من هو أقوى منه جسمانياً وقتالياً، ولأن الإنسان بل كل المخلوقات مجبولة على البحث عن مكان يؤويها ويجمعها.

العيش داخل الكهف لم يكن مهمة خالية من الصعوبة، فيجب أن يكون هذا الكهف قريباً من مناطق يتوفر فيها الغذاء والماء، ويتطلب قدرة على الدفاع عنه.

يبرز كهف "**هوا افطيح**" كواحد من أهم الكهوف التي سكنها الإنسان في ليبيا عبر عصور مختلفة ضاربة في القدم، استطاع العالم الاركولوجي تشارلز ماكبيرني أن يستخرج من خلال حفرياته هناك مئات القطع الأثرية التي تعود إلى عصورٍ مختلفة بعضها ربما صنع قبل 90 ألف سنة، كأدوات حجرية استخدمها الإنسان في الدفاع عن نفسه أو في تقطيع الطعام، وأدوات أخرى بعضها موسيقي، يقع هذا الكهف الذي يعتبر من أهم مواقع آثار الإنسان القديم في شرق ليبيا على مقربة من الشاطئ، في منطقة لا تزال خصبة حتى اليوم، يبلغ طول مدخله نحو 80 متراً فيما يبلغ ارتفاعه 20 مترا، مكان يبدو أنه اختِير بعناية، وليس أدل على ذلك من أنه وحسب ماكبيرني ظل عامراً فترة طويلة جداً من الزمن.

ولادة الفنون

إذا ما أدرنا ظهورنا عن المناطق الساحلية في ليبيا واتجهنا جنوباً، فإننا سنجد الكثير من الكهوف التي لا تزال تُسحر الزوار إلى يومنا هذا، ليس لجمال أشكالها بل لما احتوته من رسوم عجيبة عكست واحدة من أهم خطوات ازدهار الإنسانية، مناظر تسلب الألباب لرسوم خطتها أياد محترفة بارعة من الرسامين والفنانين الأوائل في التاريخ.

عندما **ابتكر الإنسان اللغة والكلام** تمكن من تبادل المعلومات مع مجموعته التي يعيش معها، عائلته، قبيلته .. وهي في كل الأحوال ستظل مجموعات محدودة .. لكن عندما بدأ النقش والتدوين والرسم وصولاً للكتابة كان قد بدأ يتبادل المعلومات مع مجتمعات وأجيال كاملة .. ومع كل من سيرى نقوشه تلك من مجتمعات أخرى كثيرة جداً قد تمر من هناك أو تولد من صلبهم.

يمكننا أن نمثل ذلك اليوم بلغة "الكمبيوتر" فإذا افترضنا أن اللغة والكلام في حد ذاتها تمثل شبكة محلية من مجموعة أجهزة قريبة موصلة من بعضها، فإن النقش والكتابة ستكون شبيهة بشبكة الإنترنت العالمية بالنسبة لإنسان العصور القديمة.

حتى اليوم أفادت تلك السجلات علماء الآثار في معرفة حياة وسلوك هؤلاء الذين سكنوا هذه البلاد وحقيقة الطبيعة والمناخ في تلك الأزمنة، من كان سيتخيل أن الصحراء الكبرى وبحار الرمال المقفرة تلك كانت غابات خضراء وسافانا لولا تلك الرسوم عن الزرافات والفيلة والتماسيح وأنواع الحيوانات والطيور المرسومة على جدران تلك الكهوف؟ اليوم أكدت الأبحاث الحديثة تلك السجلات واكتشفت بقايا بحيرة فزان العظيمة التي جفت قبل آلاف السنين لتفسح المجال لزحف الرمال على هذه الأرض.





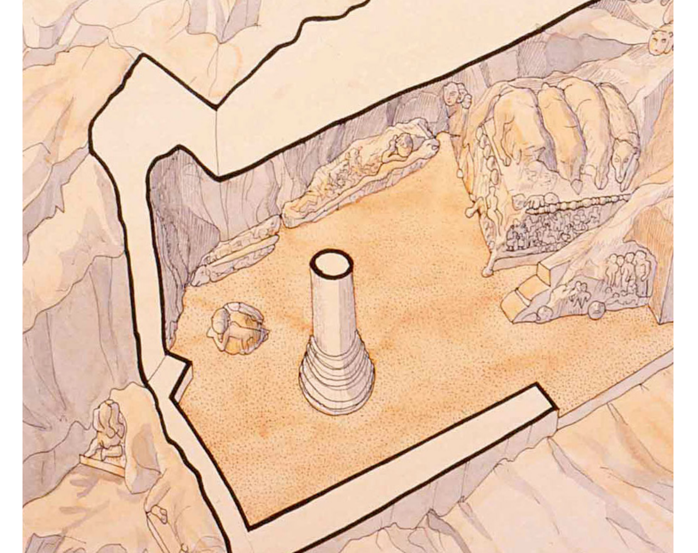
كهوف للعبادة

في منطقة اسلنطة في الجبل الأخضر ثمت كهف كشف عن نفسه كلياً بعد انهيار الأجزاء العلوية منه، واحتوى نقوشاً غامضة لأناس في أحجام وأعمار مختلفة، ونقوشاً لوجوه بارزة إلى جانب بعضها البعض، كما احتوى نحتًا لتمثال ضخم في إحدى جوانبه.

يقول د. عبد الجواد عباس: "قد أجمعت المراجع التي تسنّى لنا الاطلاع عليها بأن الرحالة (هايمان) الذي كان في رحلته نحو قورينا في نهاية القرن التاسع عشر(1886 ف) هو أول من اكتشف ما يسمّى بـ(حققفة التصاوير) بأسلنطة وهي تسمية محلية، حيث يعتبر المعبد الصخري أثراً ليبياً فريداً وشهادة واضحة على أقدم آثار ليبية تقع في وسط منطقة تهيمن عليها الآثار الإغريقية والرومانية التي تطبع الجبل الأخضر ببصماتها الجلية.

ثم قام العالم الجيولوجي (قريقوري) أول مرة بالتقاط صور شمسية لوجهة معبد اسلنطة سنة 1909ف، ثم قامت بعثة أثرية برآسة (هالبهر) و(سانكتس أورجيما) بالتقاط المزيد من الصور الشمسية سنة 1910ف دون إجراء أي دراسات موسعة، حتى قام (فيزلسيوني) في الفترة من 1912-1920 بإجراء حفريات في هذا المعبد وكشف عن بقية المنحوتات التي لم تكن واضحة للعيان مشيراً إلى أنها نماذج من الفن الليبي الأصيل لفترة ما قبل التاريخ.

هذا وقد توالت الدراسات حول هذا المعبد فيما بعد على يد (أوليفيريو و رومانيللي وقودتشايد و ستوكي) ومصلحة الآثار الليبية التي قامت في أوائل التسعينيات بترميم واجهة المعبد الذي تعرض للانهيار بفعل أمطار الشتاء الغزيرة، ثم قام الأستاذ ماريولوني بعد ذلك بدراسة موسعة عن الموقع خلال السنوات 1996ـ1997ف".





إذا ما اختلف الباحثون في الكثير مما يتعلق بهذا الكهف ومنحوتاته فإنهم قد اتفقوا على أنها من صنع السكان الليبيين الذين كانوا يقطنون تلك المنطقة ما بين القرنين الثاني والرابع الميلادي.

وأنه بلا شك قد نحتت ونقشت رسومه ومنحوتاته لأغراض الطقوس والعبادة، التي ربما لا نملك الكثير من المعلومات عنها رغم الدراسات التي عنيت بالجوانب الدينية لليبيين القدامى ومن أهمها ما دونه أوريك بايتس في كتابه "الليبيون الشرقيون".

هذه المقبرة التي تقع تحت الأرض في طرابلس تحفظ لنا الكثير من أسرار تلك الحقبة، آلاف بل ربما ملايين البشر مروا فوقها دون أن يعلموا بوجودها



المقبرة الميثرائية

الميثرائية ديانة لا تزال غامضة رغم انتشارها الواسع في بعض العصور، وأصل ميثرا هو إله في الديانة الزرادشية، وقد استحوذت الميثرائية على الكثير من اهتمام الباحثين في الميثولوجيا والأديان وأساطير الشعوب لأسباب كثيرة.

انتشرت هذه الديانة في اراضي الامبراطورية الرومانية بين القرنين الأول والرابع الميلادي، وامتدت حتى ليبيا وتحديدا الاقاليم التي كانت تحت حكم الرومان وقتها.

يعرف الباحثون اليوم بعضا من طقوسها وأسرار هذه الديانة لكنهم لا يملكون الكثير من المعرفة مثل ما يملكونه عن الميثولوجيا الاغريقية والرومانية مثلاً.

هذه المقبرة التي تقع تحت الأرض في طرابلس تحفظ لنا الكثير من أسرار تلك الحقبة، آلاف بل ربما ملايين البشر مروا فوقها دون أن يعلموا بوجودها، اعتبر البروفيسور الإيطالي رومانيللي أول من يكتشف المقبرة ويقوم بدراستها سنة 1920 وقد كتب عنها فصولاً لازالت المرجع الأهم وربما الوحيد عن هذه المقبرة التي لم تحظى بدراسة أثرية تليق بمكانتها، ولا بعناية تناسب أهميتها اذ تتعرض للتلف بشكل متسارع ومخيف.

القبر الأول داخل في هذا المكان يبدو واضحا في الصورة وهو عبارة عن حفرة مستطيلة في الجدار يوجد أسفلها حفرة بشكل تابوت وضعت فيها الميتة وغطى التابوت بالبلاط الأبيض رسم عليه بعض المناظر الجنائزية، وكتب عليه اسم صاحبة القبر آليا أريوس (aelia arisuth) وعبارة تقول:

... في رحاب إله الموت ... هذا القبر لاليا أريوس ...

... التي عاشت قرابة 60 عاما ...



أما تحت هذه العبارة فقد رسم وجه صاحبة القبر آليا، حيث رسم بطريقة بارعة الجمال تظهر فيه مرتدية معطفا أبيضا فيما تحمل فتاتان صورتها على شكل إكليل من الزهور، وعلى الجانبين رسم ملاكان.



عـن يمـين ويسـار القـبر يظهـر كاهنـان يمسـك كل واحـد منهـما شـعلة ضخمـة، تصويـر الكهنـة والملائكـة أمـر معتـاد في النقـوش والرسـوم الجنائزيـة، وفي الاسـفل يظهـر رسـم مـن نـوع آخـر، سـباق خيـول متكامـل مـع كأس يحملـه رجـل ليمنحـه للفائـز، ربمـا يشـير المشـهد إلى سباق الحياة أو الموت.







إضافـة إلى قـبر آليـا هنـاك قـبر آخـر إلى جانبهـا، لكنـه أقـل حجـما واتقانـا لكـن الطـراز والشـكل شـبيه بـه، وهـو لـزوج اليـا أريسـوس المدعـو ألبـوس يوراتانـوس (aelios iura thnos) ومـات وعمـره 45 سنة والنقش الجنائزي المكتوب على القبر.

الجديـر بالذكـر أن هـذه المقـبرة تعتـبر واحـدة مـن أنـدر الآثـار الخاصـة بالديانـة الميثرائيـة، وتكتسـب أهميـة كبـيرة جـداً، لكـن الواقـع المخيـف أن بعضـا مـن نقوشـها زالـت كليـا، والباقـي أيضا أخذت ألوانه تخفت.

وقـد قارنـا صـورة حديثـة مـع الصـور التـي أدرجناهـا هنـا وهـي تسـبقها ببعـض السـنوات فاكتشـفنا أن جـزءا مـن وجـه الكاهـن اختفـى وأن بعـض الرسـوم والنقـوش بـدأت تفقـد ألوانهـا بفعـل تـسرب مياه الأمطار المستمر إليهـا، وتعرضهـا للرطوبـة وكثـير مـن العوامـل التـي أثـرت عليهـا في ظـل إهـمال غريـب مـن مصلحـة الآثار لكنز أثري قل مثيله في العالم كله.

وإذا لم يوضـع حـد لمثـل هـذا الإهـمال بشـكل عاجـل ربمـا تصبـح هذه المقبرة مجرد ماض يحكى بكثير من الحسرة والألم.



أنفاق طلميثة

أنفاق وخزانات طلميثة

بطولومايس (طلميثة) هي احدى المدن الخمسة التي يطلق عليها "البنتابوليس" في شرق ليبيا، و كانت تعتبر ميناء مدينة برقة "المرج حاليا" واتخذت كعاصمة للإقليم في العهد الروماني في أواخر القرن الرابع ميلادي.

توجد في هذه المدينة خزانات مياه ضخمة شيدت تحت الأرض ببناء بارع، حيث تتصل الخزانات كلها ببعضها عن طريق فتحات جانبية في الجدران، وبني سقفها على شكل أقواس، ويرجع بنائها إلى ما قبل الميلاد لكن بلغت منتهى اتساعها إبان حكم الرومان للمدينة حيث تمت زيادة ارتفاعها وتوسعتها في القرن الأول الميلادي وهي واحدة من أضخم الصهاريج في وقتها، اذ بلغت سعتها نحو 8325000 لتر مكعب، وبلغ ارتفاع الواحد من هذه الصهاريج أكثر من خمسة أمتار، ويصل طول امتداد بعضها إلى 18 عشر مترا.

كانت تجلب إليها المياه عن طريق قناطر مائية تحمل الماء من مسافة حوالي 23 كم، ومن المفارقات الغريبة أن المدينة التي احتوت أكبر خزانات المياه ترجع أسباب هجرة السكان منها قديما إلى ندرة المياه.

كهوف للسكن

ظلت الكهوف منذ القدم مكانا للسكنى اتخذه الانسان في ليبيا منزلا له، ربما لم تنقطع سكنى الكهوف إلا في وقت متأخر، فحتى اليوم لا تزال تحتفظ العائلات بكهوف كان آباؤهم أو أجدادهم يسكنونها إلى وقت قريب، تعرف محليا باسم "حوش الحفر" أو "يرجي - إيفري"، لكنها بطبيعة الحال ليست مثل الكهوف البدائية التي لم يتدخل فيها الانسان غالبا إنما وهبتها له الطبيعة.



غريان – منزل تحت الأرض تفتح الغرف كما هو واضح على فناء في الوسط

يفرن – بيت ايسيلين من الداخل، كهف لازال يستخدم على الطريقة القديمة ويجذب الكثير من الزوار

"حياش الحفر" وبعضها يعود لمئات السنين هو طراز بناء عريق يعتمد على حفر منزل تحت الأرض بدلا من بناءه فوقها، ربما يكون السبب في ذلك الميزات التي يمنحها من ناحية اعتدال درجة الحرارة صيفا وشتاء، إلى جانب عوامل أخرى قد تتعلق بوفرة مواد البناء.

تحفر هذه البيوت تحت الأرض بأساليب متنوعها، فمنها الطولي ومنها الدائري ومنها ما يفتح منه فناء في الوسط وتحفر الغرب عن اليمين واليسار، ومنها يفصل تماما كمنزل عادي وتفتح له نوافذ من الأعلى، إلى غير ذلك من الأشكال التي تختلف من منطقة لأخرى.



منزل تحت الأرض لم يعد صالحا كما يبدو وقد زحفت المباني فوقه



الحرب العالمية الثانية – مجموعة من جنود الحلفاء يقضون أيامهم في كهف بطبرق أثناء فترة حصارهم من قبل رومل وقواته